البحث عن «النضال المفقود»

في رواية «الثلج يأتي من النافذة»

بقلم فاضل السباعي

١

هذه رواية ترصد احداث عامين من عمر شاب مناضل التجأ الى خارج حدود بلده ، وهو يحس خطوات مطارديه اني سار او اقام اوعمل. وانه لامر جديد ، وطيب ، ان تعالج رواية عربية مثل هذه الهموم لدى مناضل عصامي ، هو الى ذلك مثقف مرهف الحس ، وكاتب يحبر المقالات والقصص والروايات الطويلة .

يتسلل « فياض » من الحدود السورية اللبنانية سيرا على الاقدام بعد ان اخذت السلطات الرجعية الحاكمة في سورية ، ذلك العهد ، تطارد التقدميين . لقد لوحق في دمشق بوصفه كاتبا يساريا معارضا، فاضطر الى الانقطاع عن مدرسته ـ وهو المعلم ـ متواريا عن الانظار فترة ، الى ان نصحه رفاق له بمغادرة البلاد ومواصلة المعركة من الخارج ، فالتجأ الى لبنان وفي ظنه انه متمتع فيها بقسط من الحرية .

وفي بيروت يقيم بين افراد اسرة رفيقه اللبناني « خليل غزالة » فترة ، عالة عليهم وهم الفقراء . يشتغل بعدها عاملا في « مطعم الجبل » ، متنكرا باسم « ميشيل » . بيد انه ما يلبث حتى يترك العمل ، عائدا الى بيت رفيق النضال خليل . ثم يراد له ، تحت الخوف من اكتشاف مقره ، ان ينتقل الى بيت رفيق اخر ليس له به معرفة سابقة ، هو « جوزيف بوعبده » . وههنا ينعم فياض بمستوى لين من المعيشة يهيىء له فرص المطالعة والكتابة . ولكن مضيفه يخسر ،في بوم فريب عمله ، فيرحل عنه في صمت ليعثر على عمل في بناء يشيد، متخفيا تحت اسم « سليمان » سرعان ما يتركه الى « مصنع مسامير » صغير في سفح جبل ، يكون فيه العامل الوحيد ، مقيما على مقربة منه . الا انه يضطر الى الرحيل ، بعد ان ثبت له ان السلطات التي تلاحقه قد اهتدت الى مقره . ويعود الى بيت جوزيف .. وهناك يوافيه احد الرفاق ليصحبه الى حيث لا نعلم ، فانه يجب ان يغادر هذه المنطقة » .

ذلك ، بايجاز بالغ ، ما وقع لفياض ،خلال الاشهر الاولى من التجائه الى خارج الحدود . ولقد كانت فترة من العمر غنية بالحوادث والاحداث ، التي انسحبت حتى غطت معظم صفحات الرواية ، الاقسام الاربعة الاولى منها (حتى نهاية الصفحة ٢٤٥) .

واما القسم الخامس الاخير من الرواية ، فيحدثنا عما وقع لمناضلنا الشاب في مراحل اخرى من حياته وهو في منفاه الاختياري. ونعرف ان فياض قد القي القبض عليه ، بعد عام اضافي ، وهو في فبو يحتوي على مطبعة تقوم بطبع المنشورات السرية . ثم نعرف انه قد اطلق سراحه بعد ان امضى في السجن نحو اشهر ستة . وبدا لنا انه قد انيح له ، بعدئذ ، ان يتوارى ، وان يعمل ايضا متنكرا. حتى اذا اشتدت عليه قبضة مطارديه ، آثر ان يلتجيء ـ والفصل شتاء ـ الى قرية نائية في جبل لبنان . وهناك يتوفر له جوّ هادىء وان كان كئيبا فيفرغ من وضع قصته الطويلة . ثم يقرر ، بعد هذا الاغتراب الطويل ، العودة الى وطنه . ويجتاز الحدود الفاصلة ،الموضع ذاته الذي تسلل منه قبل عامين .. ويقبل تراب الوطن .. ويستقبل دمشق هانئا وكأنه يؤدي فسما :

ـ « ابدا لن أهرب بعد الان ! ».

هذا هو موجز « الثلج يأتي من النافذة » ، ثالث رواية للكاتب السوري الاستاذ حنا مينه (١) ، التي نشرتها وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بدمشق في العام ١٩٦٩، من ثلاثمئة صفحة واثنتين وسبعين من القطع الصغير .

٢

ان قارىء « الثلج يأتي من النافذة » يرنو ، منذ البداية الى بطلها فياض ، مبهورا ومشوقا الى ان يطلع على صفحات ناصعة من نضاله ، وقد صح عزمه على تأييده والتعاطف معه . فالمناضلون فئة من البشر محببة الى نفوس الجماهير بخاصة : لانهم ابطال حقيقيون يجترحون الخوارق ، ولانهم ، قبل ذلك ، ينافحون عن مثل غالية ،وهم كلما حزب امرهم واضطهدوا وعذبوا ، منحهم القارىء مزيدا من العطف والايد ، حتى ليبدو ، احيانا ، وقد امتلأ صدره حمية واستعدادا لبذل الروح دفاعا عن مثلهم السامية .

فأين موقف بطلنا من ذلك كله ؟

فياض ، الكاتب اليساري المعارض ، يفادر سورية خوفا من ان تزج به السلطة الحاكمة في السجن . ولكن ذلك ، في ظني ، تخاذل يمكن ان يسجل عليه . انه اذا لم يكن امام الكاتب المعارض الا التواري في بيوت الاصدقاء اتقاء الاعتقال الى ان ينصحوه بالرحيل الى خارج الحدود ، فليس حقيقا ، اذن ، بان يعطى لقب « الكاتب المعارض». واولى به الا يكون معارضا ، الا يكون كاتبا على الاطلاق !

---

١ ـ له : « المصابيح الزرق » صدرت في طبعتين : ١٩٥٤ و ١٩٦٩ ، و « الشراع والعاصفة » صدرت في ١٩٦٦ .

هذا المناضل يدخل بيروت تحت ستار من التكتم اصطنعه لنفسه، وعلى الرغم من اننا لم نسمع ان حكومة لبنان القت القبض على سوريين التجأوا اليها ـ ما داموا لا يمارسون على ارضها نشاطا سياسيا ما ـ وسلمتهم الى سلطات الحدود (٢) .. الا ان فياض يخاف سلطات لبنان خوفا لا حد له ، رغم انه لم يمارس اي نشاط سياسي ، ضد الحكم في سوريا او في لبنان (٣) . وان خوفه يحمله على ان يرضى بأن يحتبس نفسه في احدى غرف بيت « غزالة » الضيق . وما ان عمل خادما في المطعم حتى هجره ، لانه تلقى اهانة من رجل فظ ، عائدا الى بيت غزالة من جديد ، مؤثرا ان يطعم على مائدة هذه الاسرة الفقيرة المؤلفة من عشرة افراد يعيشون على الكفاف ...

ولسوف تظل ترافقك ،على طول الرواية ، مخاوف فياض غير المبررة من الاعتقال . ولكني اؤكد لك بانك لن تحس قط خوفا عليه، لان ما قدمه المؤلف الينا من الحوادث والصور والخواطر لا يبعث على الخوف والفزع .

وكم تبسمت وانا استمع الى أحد الرفاق يقول لفياض :« ابق لدينا ، احسب ان الضجة قد خفت الان » (٨٧) واية ضجة !.. او أنصت الى فياض نفسه مفكرا في قلق : ان « الوضع السياسي متوتر » (١١٣) .. او وهو يستشعر « مذلة حقيقية » ويتمنى لو يتخلص من « لعنة الوضع الذي هو فيه » (١٦٤) .. ولقد كانت قناعتي كلها مع « ام بشير » ،خالة خليل غزالة ،في تساؤلها الصادق :« لماذا يطاردونه ؟ ماذا فعل ؟ » (٣١٠) .. على انني لم اكتف بمجرد الابتسام وانا ارى فياض وهو يسير يوما في طريق الدورة ،فلمح شابا ـ كان يوما من تلامذته ـ يقبل عليه هاشا مصافحا . وكان لا بد من ان تنتاب « بطلنا » الذعر العظيم !لان « هذا الشاب ممن يطاردون امثاله». وبادر الى التخلص منه بلباقة ،ثم اندفع الى الرصيف المقابل ، معرضا نفسه لخطر السيارات المارقة و« راح يمشي مشيا عاديا اولا ، تم اسرع، واسرع اكثر ، واستدار ليرى ما اذا كان الشاب يطارده ،ثم اندفع يركض في أحد المنعطفات » (٢٤٤) (٤) .

على انني ازددت عجبا ، لدى علمي من فياض ، بأن رفاقه من السوريين اللاجئين المثقفين يعرضون « ليسانسات بالعشرات ،كتذاكر الهوية ، على ابواب مدارس خاصة » ،فيعملون ولو بالاجر البخس المستغل (١٨٩) ... الا هو ، الكاتب المعارض ، الذي آثر الانزواء في الغرف الداخلية للبيوت ، حتى اذا تجاسر ومارس عملا فبالاسم المستعار . ولست ادري اية شجاعة خارقة واتته في اخر الامر ، حين قرر العودة الى الوطن متسللا ليهتف هتافه ذاك :« ابدا لن اهرب بعد الان ! » (٣٧٢) .

ولقد شاء المؤلف لبطله ان يكون كاتبا اديبا . الا ان ثقافة فياض ـ كما عرضت علينا في اقسام الرواية الخمسة ـ ومواقفه، ومحاوراته مع الاخرين ، وكذلك خواطره الذاتية ، هذه كلها لم تفلح في ان تمنحنا الاحساس الصادق بأننا نعيش مع كاتب اديب .ولم يكن حديثه عن نفسه اديبا ، وحديث اصدقائه اليه بهذا الوصف ،الا ليؤكدا لنا احساسنا باننا ازاء مواطن عادي لا تربطه بالثقافةوالادب وشيجة . واما انه « اعتزم اتمام قصته الجديدة » (١٤٥) ، وانه « انهى قصته الطويلة ، ثم فشل في ان يبدأ قصة جديدة » (٣٦٢) فتلك مزاعم لم تمس قناعتنا ـ نحن القراء ـ مقدار ذرة واحدة ، لانه لم يدعمها مستوى ثقافي مقبول لدى فياض ، ولا هموم من تلك التي تؤرق الادباء المبدعين عادة .

وصدمني ، غير ذلك ، فيض من الحوادث تتابعت في فصول الرواية ، لا يمسك بعضها برقاب بعض ولا بأيد ولا باذيال . ان من اوليات الادب الروائي ان ما لا يفسر الحدث الرئيسي في الرواية ،او يضيف اليه ، او يثريه ، يصبح وجوده عالة على العمل الفني ويوهنه ، ويغدو حذفه والغاؤه ضرورة لا مفر منها .

وهكذا انعدمت امامنا الرابطة بين سلسلة من الحوادث يسوقها المؤلف وبين السلسلة التي تليها . وكأني به قد اعد سلفا مجموعة حاشدة من الوقائع الشتيتة ، واخذ على عاتقه ان ينظم بعضها في اثر بعض . فالى اي حال آل أمر الرواية ؟ فتور وبرود وثقل يصل درجة الموت ، موت العمل الفني . وقد عهدت الرواية ، كل رواية«سنفوني» تبدأ هادئة رتيبة ،تلم هنا بجانب من المشكلة ، وتقدم هناك هذا الشخص او ذاك .. ثم تترى الحوادث والصور والمحاورات التي تزيد في احتدام الحدث الرئيسي ، وتتازم الامور لدى شخوص الرواية والبطل بخاصة ، وينتامى الصراع حتى يبلغ الذروة التي تسقطنا في وهدة النهاية وتدعنا نفكر في ما آل اليه حال الابطال والشخوص .

واما فياض .. فقد بدا لنا ، منذ الصفحات الاولى ، خائفا مذعورا لا يتطلع الا الى بيت يؤويه . على حين كان رفاقه يعملون في العلن . وظل فياض اسير هذا الفل الذي حطه المؤلف في معصميه، يتوارى حينا ، ويعمل تحت اسم مستعار ، وقد سحقه الذعر ، ثم يعود ليتوارى ،ثم يعود ليعمل مرة ثم مرة ثم مرة .. وقد كان بحسب المؤلف ان يتيح له أن يتوارى مرة اولى ، ثم يطلقه للعمل غير هياب.اما وانه قد كررها حتى استغرق من الكتاب معظم صفحاته ، فقد كان في ميسوره ، اذن ، ان يعيد ذلك مرات ومرات .. حتى يبلغ صفحات كتابه الرقم الالف ! وعلى العمل الفني ، وعلى « ذروته »العفاء !

أقول : ان الصراع في الرواية مفقود . فكل شيء انتهى الى مثل الحال التي ابتدأ فيها (٥). لولا اني لمحت تحولا متصاعدا في مواقف جانبية ثلاثة :

حب فياض ، الافلاطوني ، وهو مكمنه في بيت غزالة ، لفتاة المنافذة المقابلة » « دينيز » (١٢٤) . وقد حسبنا ان هذا الحب الهائم بانتقال فياض الى بيت جوزيف ، قد مات . ولكنا فوجئنا بفياض، وهو يعمل في مصنع المسامير ، يبعث اليها برسالة حب (٢٥٥) .

والاضراب الذي دعا اليه الرفيق خليل غزالة ، محرضا عليه زملاءه عمال الهاتف ، قد وقع اخيرا (٢١٨)، وان كان انتهى الى اخفاق وسرح خليل من عمله ، وبدأت اسرته تجوع (٢٦٤) .

وثالث هذه المواقف الجانبية المتطورة هو انتظار « ابوروكز » صاحب مصنع المسامير ، لزيارة اخته للمصنع ، تلك الاخت اللبنانية المهاجرة منذ زمن بعيد الى فنزويلا والتي اغتنت وغدا ابنها الفنزويلي وزيرا للداخلية هناك .. يترقب ابو روكز زيارتها لعلها تمده بمعونة

---

١ ـ لا ينفي ذلك ان ورد في الرواية (الصفحة ٦٠) ان احدى الجرائد في بيروت كتبت بالخط العريض : « تحريض خارجي لاحداث البلبلة والتخريب » ، « اعتقال بعض السوريين وتسليمهم الى حكومتهم والبحث جار عن آخرين » .. فهؤلاء ، الذين اعتقلوا وسلموا ، اتهموا بالتحريض على احداث البلبلة ، أي مارسوا نشاطا ضد البلد الذي التجأوا اليه . وفياض لم يمارس مثل هذا النشاط قط ، فلا خوف عليه اذن .

٣ ـ تجدر الاشارة الى ان فياض عندما ألقي القبض عليه (ص ٣٤٧) ، انما كان بسبب اشتغاله في مطبعة سرية تطبع منشورات تناهض الحكم في البلد . ثم هو لم يسلم ، بعد نشاطه هذا ، الى السلطات على الحدود يوم اطلاق سراحه ، بل كان هناك امرأة في انتظاره وسيارة ، حملته الى حيث الرفاق وعانقوه (٣٦٠) .

٤ ـ ويحه ! وهل كان يظن أن رجل المباحث او المخابرات هذا جاء بيروت « ليختطفه » الى دمشق ! وجدتني ، وانا أقرأ هذه الصفحة ، أسود بياض هامشها بهذا التساؤل المر : لم هذا الخوف كله ، أيها المناضل !!

٥ ـ يستثنى من ذلك عودة فياض الى ارض الوطن ، تلك العودة التي لم تكن لترتكز على مسوغات منبثقة من سلوك البطل ، ولا نابعة من صميم العمل الفني .

مالية يوسع بها مصنعه الصغير (٣١٩) (٦) .

٣

واحسب ، بعد هذا ، لتزاحم الحوادث فيهذه الرواية ، ان كثيرا منها هو مما وقع للمؤلف في فترات من حياته او وقع لاصدقاء له اقربين . فهي ، اذن، من ذكرياته العزيزة التي يصعب التفريط باجزاء منها ! ولست بمقترف من القول شططا اذا زعمتكذلك ان لكثير من شخوص هذه الرواية اشباها او أظلالا في حياة المؤلف فتمسك بها وفاء لاصحابها الذين احب ، وعرفانا بجميل الذين اكرموا وأصفوا الوداد .

على ان الحال ، بالنسبة للشخوص وهم كثر ، يختلف عما رأينا في حوادثها . فقد توزعت شخوصها ما بين النجاح والفشل . وما يلاحظ ان الاخفاق كله كان من نصيب أولئك الذين اسبغ عليهم المؤلف لبوس النضال ،في حين اصابت الشخوص الاخرى ، اللامنتمية والساذجة الطيبة معا ، حظا اوفى من النجاح . وآية ذلك ان من اشق الامور على الروائي ان يلبس شخصا من شخوصه لبوسا فكريا، ويعهد اليه باداء مواقف عالية سامية ... ان ذلك يتطلب منالكاتب وعيا ودراية باصول الفن الروائي وخبرة طافحة بشئون الحياة جميعا ، وأن خطأ ما في تكوين الشخص الروائي ، يجعل منه نموذجا غير مقنع ، شبحا يروح ويغدو امام القارىء على غير مقتضى العقل ومنطق الاشياء .

ففياض ، لدى مؤلفنا ، مناضل . ولكن للنضال ، ولا شك ، تبعاته ، واولها ان « اقتنع » ،أنا القارىء ، بمواقف البطل النضالية حتى تتحقق بيني وبينه « المشاركة الوجدانية » فامنحه رضاي وتأييدي وحبي ... أفلا يحدثني عن أعماله ، يسر الي بافكاره تطلعاته ،همومه التي يؤرقها ظلم الانسان للانسان ؟ وماذا تراه فعل مؤلفنا ؟

انه لم يقل لنا بأن بطله سجن لافكاره ، أو عذب وأهين . انه قال عكس ذلك . رأيناه يوجز القول على لسان فياض الذي اخذ يحدث خليل اول ما لقيه : « ان الرجعية الحاكمة في سورية قد فتحت المعركة ضد الشعب تمهيدا للدفاع المشترك ، وهي تطارد التقدميين لتمرير هذا الحلف ، ولكنها لن تنجح » (٢٣) . قال المؤلف هذا ،ولكنه ، في الحقيقة ، لم يقل شيئا : فما الظلم ؟ ما الحلف ؟ ما المطاردة ؟ما السجن ،التعذيب ،القتل ؟ وما موقف فياض ـ مناضلا من ذلك كله ؟ هل كتب المقالات ؟ ناضل ؟ عذب ؟.. وقد لوحق لانه يساري وكاتب معارض ، فاضطر الى الانقطاع عن التدريس،واختبأ مدة. فلما اشتدت الملاحقة نصح بمغادرة البلاد لمواصلة المعركة . وقد التجأ الى لبنان وفي ظنه انه سيتمتع بالحرية » (٢٣) .

هذا ما لخصته الرواية عن وضع البطل ، ثم ... اخفقت في ان تقدم لنا موقفا واحدا صحيحا من مواقفه التي كانت ، آخفاق فياض نفسه في ان يؤدي ، أمام اعيننا في بيروت ، موقفا « على الطبيعة » يقنع . ولكن للحقيقة نعترف بأن خليل غزالة قد حمل يوما الى فياض صحيفة فيها مقال له ، ولكنه مذيل « بتوقيع مستعار » (٩٣) . ما المقال؟ ما وجه النضال فيه ؟ خليل وفياض والمؤلف ، وحدهم الذين يعلمون ... وما نحن القراء ، الذين كتبت الرواية لنا ، فاننا وحدنا الذين لا نعلم ! (٧) .

---

٦ ـ ولكننا لم نعرف ما اذا كانت الاخت قد انتوت ، بعد زيارتها ، ان تتبرع لاخيها الصناعي الصغير ، أم لا .

٧ ـ من طريف ما نذكره ، هنا ، ان فياض أبدى أسفه لان جملا من المقال قد أتى عليها قلم محرر الصحيفة . ودافع خليل عن المحرر بداعي ان الجمل كانت حماسية (وهذا فهم جيد من خليل) . ولم يقتنع منه فياض . فاختلفا . واعلن فياض ، آسفا ، انه سيكف عن الكتابة . فيقول خليل : « لا تكتب . استرح . أنت بحاجة الى الراحة » . ولما عاد فياض الى غرفته ، جلس على حافة السرير يبكي : « أهانني . هنا ايضا أهان » (٩٥) .

ونتساءل مع المتسائلين : لماذا يطارد فياض في لبنان ؟

ويجيب خليل في معرض الدفاع عن رفيقه فياض : « لم يفعل شيئا .. الصحافة زعمت ان نشاطا خارجيا يجري في لبنان . ولان النشاط لا بد له من فائد ، والقائد لا بد له من اسم ، فقد اوردت اسم فياض .. والشيطان وحده يعلم لماذا أوردت اسم فياض .. المسألة خطأ ، ولكن أين من يصحح الاخطاء ؟ ربما لانه كاتب ، والكاتب له شهرة ، والشهرة تخلق ضجة .. انهم يريدون احداث ضجة .. هذا كل ما في الامر ، فهمت ؟ » (٣١٠) . وبدا ان المتسائل ، في الرواية ، الذي سيق له هذا المنطق ، قد فهم ، لانه لم يعد ، بعد هذا « الايضاح » ، يثير تساؤلا . واما انا ، فما فهمت ـ وحق ربي ـ شيئا ! فما حال فهمك لهذا النص ، أيها القارىء العزيز ؟

واراد المؤلف لبطله ان يكون كاتبا واديبا : كاتبا ذا شهرة ، وتثار حوله « الضجة » ... قلم نقتنع . ألعناد فينا ويبوسة رأس ؟ ام ان منه العجز جاء ؟ اننا ، منذ قال جوزيف بوعبده لزوجته يعرفها بأهمية ضيفهم اللاجيء : انه « من نوع فلوبير وموباسان » (١٣٩) ، ونحن ننتظر دليلا ، ولو صغيرا ، على هذا الادعاء العريض . وبعد ان استقر به المقام في هذا البيت البرجوازي الانيق ، « اعتزم انمام قصته الجديدة بسرعة » (١٤٥) ، فتفاءلنا ... ولكن دليلا لم يظهر .

ان خواطر فياض كانت ، على نوالي صفحات الرواية ، ترود مجالات شتى . ولكنها لم تكد تدنو من دنيا الفكر والادب والكلمة الخضراء الا نادرا جدا ، وبدون ان نكون عندنا قناعة بأنه اديب . وما الحديث حول الادب ، بينه وبين جوزيف ، بدليل (١٧٣) ، لان مثير الحوار كان جوزيف لا فياض ، جوزيف الذي كان ، يوما ، يكتب ، ثم يقدم « يومياته الخاصة » الى فياض ليرى فيها رأيا .

وأزعم ، بعد هذا ، ان فياض ، في ثقافته العامة والخاصة ، لم يكن بأعلى مستوى من خليل غزالة . بل اني لم الحظ فارقا بينهما، أي فارق : ليس لثقافة في خليل عصامية ، فهو مجرد عامل في مصلحة الهاتف طيب النفس أخ للكادحين ، ولكن لانعدام الاهتمامات الثقافية الحقة لدى فياض نفسه . رأيتهما ـ فياض وخليل ـ نمطا متقاربا : في التفكير ، والسلوك ، ومعالجة المشكلات اليومية . ولو أنا بادلناهما الصفتين ـ المثقف المظنون والآخر نصف المتعلم ـ لما طرأ على وضع الرواية الراهن تغير يذكر .

وملحظ اخير على فياض : لقد كان ذا شخصية روائية « مستوية » ! لم ترتفع ، لم تنفير ، لم تتنام ، لم تتوتر . بدأ فياض ـ كالرواية عينها ـ في حال ، وانتهى آخر الامر في الحال ذاتها . تسلل الى لبنان تحت جنح الظلام ، وهو يحمل نظرة معينة الى الاشياء والوجود ، وخرج من لبنان ، بعد عامين من الحوادث والتجارب والمحن ، ونظرته هي هي . فأي بلاء حل به حتى جعل منه على هذا الاستواء !

قلت : ان الفشل كان حليف الشخوص التي اسبغ المؤلف عليها لبوس النضال ، فلم تقنع قارئا ولا حملته على ان يفتدي بروحه القيم التي ... لم تطرح ! واذا كان فياض شخصا روائيا غير مقنع ـ رغم أنا عايشناه في معظم صفحات الكتاب ـ فان خليل غزالة وجوزيف بو عبده لم يكونا في ذلك اسعد حظا ، فهما ، في المرات القليلة التي ظهرا على مسرح الرواية ، بدوا لنا غامضين ومهتزين ، لا يثيران فينا عاطفة ما حقيقية . كانا اشبه بشبحين يتحركان .. ما الملامح ؟ ما السمات ؟ ما الاهداف على وجه التحديد ؟

وقلت أيضا : ان الشخوص الاخرى اصابت حظا اوفى من النجاح، فهي لم تكن شبحية او غامضة ، لذلك كانت اكثر حيوية واقناعا :

أعجبتني « هناء » ، زوجة جوزيف بو عبده ، بسذاجتها وتطلعها البرجوازي المريض . انها تريد لزوجها ، الموظف المحدود الدخل ، ان يقتني لها فاخر الرياش ، لان اخواته ، المتزوجات من اغنياء ، ذوات رياش فاخرة . انهم « كلهم فوق الريح . زوج اخته سيكون مليونيرا

في المستقبل . لديه أرض كبيرة قرب مطار خلدة ، ثمنها مليون ليرة ، وفي المستقبل الله اعلم » (١٦١) .

واعجبتني « أم بشير » ، خالة خليل غزالة . ولا أعيب على هذه الشخصية الا تأخر ظهورها على مسرح الرواية دون ما سبب . ولكنها منذ ظهرت (في الصفحة ١٠٠) غدت عنصرا نشيطا محركا وجذابا .

واعجبتني شخصيتا « أم خليل » و « ابو خليل » ، الشيخان . فقد تمتعا ، كالسابقتين ، بعفوية طيبة . على ان شخصية « ابو روكز» تبقى في منزلة عليا من الوضوح والتوفيق .

وكم وددت لو ان المؤلف ملك « عدة » روائي اكثر دراية ، فدرس جيدا ابعاد شخوصه (٨) وامكاناتهم ، وعني بهم في تخطيط وتطوير وتنميق ، اذن لجاؤوا اقرب الى الكمال الفني ... فهم ، في الحق ، « خامات » طيبة . ولكن المؤلف ـ الذي أعتقدت انه اقتلعهم من ارض واقعه ـ كان اكثر حبا لهم ورحمة بهم ، فتأثم ـ كما يخيل الي ـ من ان يرتفع بهم عن حضيض الواقع ، ليحلق واياهم في سماء الابداع الخلاق .

٤

وفي الرواية وجهة نظر ، عبر عنها فياض ، حول البغايا . رأيته يبدي منهن اشمئزازا ويضمر لهن الاحتقار . « البغي مخلوقة آثرت الراحة على الكدح .. وبرغم الدوافع فانها امرأة رخيصة ، وأي رخص اكثر من ان تكون مبصقة لكل مخمور » (٢٤٢) . بيد انني انتظرت من فياض ، الاديب القصصي كما قالت الرواية ، ان يرى في البغي ضحية للمجتمع الرأسمالي المتفسخ ، فلا تنال منه تلك الزراية والاحتقار ، بل تستحق اثارة من عطفه وهو المناضل الاديب .

وفي الرواية ، ثانية ، لفتة ما زلت احسبها « دعابة » ، رغم ان المؤلف ـ كما بدا ـ لا يعدها كذلك : « بكت بدموع غزيرة ذلك المساء ، لان فستانها الاحمر ، فستان العيد ، أخذه البوليس من بيت «فدوكيا» الخياطة ، كدليل جرمي على ان عفيف ـ شقيق الخياطة ـ اشترك في تعليق الاعلام الحمر على اعمدة الهاتف في اول ايار . وقال الناس ان البوليس سيكبس الحي كله ، بحثا عن الفساتين الحمر » (٤٤) (٩) .. وههنا دونت يدي بالقلم « الاحمر » ، على هامش الكتاب ، كلمة : « تخينة ! » واشارة تعجب في قفاها !

وحب فياض ، كرة ثالثة ، من وراء النافذة ، للفتاة دينيز ، دون تلاق ، هو حب غريب قبلناه ! ولكن سرعان ما اكتشفنا ان الفتاة الناعمة ، اليتيمة ، مدللة بحبه ، وانها لترسل اليه المراسيل ، وهي التي ، من قبل ، كان قد « غازلها ، طوال مدة دراستها ، عدد غير قليل من زملائها ، ولاحقوها دون اكتراث منها . لقد اخرجت دينيز احد اساتذتها عن وقاره ليعلن لها ، في بطاقة دسها لها بمناسبة رأس السنة، انه يهواها بكل جوارحه » (٢١٥) (١٠) .. ثم يشاء المؤلف ان يجعل الفتاة تنتمي الى طبقة موسرة ، وفياض مقيم في بيت غزالة ، المقابل ، الوضيع ! كيف تتلاقى الطبقتان المتعاديتان في بنايتين متقابلتين ؟! ولما كانت دينيز يتيمة ومن أسرة غنية ، فان امها هي ، بالضرورة ، « رابعة ثلاث في طاولة بوكر تستنزف المال الموروث ، وتمتص التفكير الجنسي المعذب لارملة شابة » ! (٢٧٢) .

على ان في الرواية افكارا وموافف راقتني :

بدا لي فياض ، بعد كل شيء ، نموذجا لانسان طيب وديع ومرهف الحس ، وديع الى حد السذاجة احيانا . ووداعته ورهافته هما اللتان جعلتا منه مفزوعا أبدا .

ومن خواطر فياض البارعة ، تلك التي حدث نفسه فيها : « لقد اعتاد الناس السير في الطريق المفتوحه ، وكل الذين شذوا اعتبروا في البدء مجانين ... تصدت امرأة في جبل لبنان لجمال السفاح وقذفته بترموسة تنور يابسة ، فاعدمت ، وقال والدي : مجنونة .. ايش نابها ؟ فانكمشت أمي ذعرا وقالت : الله لا يلوع قلب ... » (٣٤٠) .

وعندما حرض العامل المناضل « خليل غزالة » زملاءه على اضراب في مصلحة الهاتف ببيروت ، فصلوه من عمله . فجاعت الاسرة : الشيخان والزوجة والصغار . كان الوالدان ، قبل ، يجتهدان في ثني خليل عن ضلاله : عن نضاله . ولكن لما جاع افراد الاسرة « كان الوجود الذاتي لكل منهم قد اندغم في الوجود العام ، فأحسوا انهم سقطوا في المعركة معا ، وان عليهم جميعا ان يتحدوا ضد خصمهم. المجتمع ، وبدوا كأنهم شركاء متضامنون امام المصيبة » (٢٦٧) .

وجاءت خليلا خالته تعزره على تحريضه الذي انتهى به الى التسريح وتجويع الصغار . فقال لها ، هذا العامل الذي يفكر بعمق : « يموتون ؟ ما اظن ، وحتى لو ماتوا .. لو خاف كل أب على اولاده ، وكل ولد على اهله .. لو لم تكن الاضرابات ، لو لم ينشرد فياض ، لو لم يمت الناس ؟ فكري : كان العامل في الماضي يفنى ولا يحصل على تعويض : كانوا يلاحقونه ، وكان بلا قانون عمل ، بلا حماية .. وزوجك الذي مات ، ماذا دفع لك صاحب الشغل بعد موته ؟ لا تذكريني بأولادي . لن ابكي لاجلهم مثل النساء .. » (٣١٢) . لقد رأيت هذا العامل نصف المتعلم ، يفكر خيرا من فياض الكاتب اليساري المعارض. ومن هنا حق له ان يهزأ بصديقه فياض احيانا : « انه لا يثق بالمثقفين » (٣٨) .

٥

والرواية ، بعد هذا ، من الروايات التي تعنى بطبائع ابطالها وبالمناخ الاجتماعي والروحي الذي ينتمون اليه . وان من ابطال روايتنا هذه : المناضل ، والعاشق ، والطامع ، والمخذول ، والبرجوازي ، والرأسمالي ، والبغي العاهرة ...

وليس من ريب عندي في ان شخصية « فياض » هي الطاغية على ما عداها ، وبها ابتدأت الرواية وبها انتهت ، وانما كانت الشخوص الاخرى تدور في فلك فياض حيثما دار . ان هذه الرواية ، ايضا ، هي من الروايات ذات « الشخصية الرئيسية الوحيدة » . فحتى « البطلة » ـ بمعنى البطولة الكاملة ـ لا وجود لها في مواجهة البطل او الى جانبه . على انني من انصار هذا اللون من الوان البطولة الروائية : فان توفر المؤلف ، على رصد شخصية رئيسية واحدة في روايته ، يتيح له ان يتعمق بطله ، فيغوص حتى اغواره البعيدة ، ومن هنا يكشف لنا المشاعر والاطوار والتناقضات جميعا . ولئن لذ ذلك للقارىء الواعي ، لهو موقف صعب على الروائي ومحفوف بمزالق فنية قد تودي !

أزعم ذلك وفي خاطري : « طقوس في الظلام » لكولن ولسن و « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ . فقد وقفت كل من هاتين الروايتين البارعتين صفحاتها ـ طالت او قصرت ـ على رصد العالم الداخلي لبطلها : « جيرارد سورم » او « سعيد مهران » . وليس يعني المؤلف في هاتين الروايتين وامثالهما ـ بعد بطله الضخم ـ الا ما يتصل ببطله الوحيد من اناس ومواقف واشياء . فالمؤلف ، هنا ، « قابع » في اعماق بطله ، يذهب معه أنى ذهب ، ويرصد كل خاطرة يخفق بها وجدانه ، ويسجل كل ما يدور بينه وبين الآخرين من حوار ، ويصف كل ما تقع عليه عينه من مظاهر ومشاهد ... ثم يتعذر عليه، بعدئذ ، امران اثنان :

ان يصف « مظاهر » البطل (فالانسان ، عادة ، لا يلحظ مظهره

---

٨ ـ شخوص هذه الرواية ، بالمناسبة ، كلهم مسيحيون . ليس فيهم مسلم واحد .

٩ ـ لولا اسم العلم « عفيف » ، لحسبت ، وانت تقرأ هذا النص، أنك امام رواية روسية ، قد كتبت في ظل الحكم القيصري بعد فشل ثورة ١٩٠٥ .

١٠ ـ كأني بالمؤلف ، وقد قرأ « الاحمر والاسود » لستندال ، يريد ، هنا ، ان يشبه فياضا بـ « جوليان سوريل » بطلها ، ودينيز بـ « ماتيلد دو لامول » احدى الفتيات الموسرات وقد اولعت بالشاب الطموح المغامر جوليان .

الخارجي ، ولكن يلحظه الآخرون) .

وان يرصد خواطر الآخرين التي لم يفصحوا عنها بالسنتهم (لان ذلك ، كما هو واضح ، مستحيل) !

ولقد كان كل ما في روايتنا هذه ، يحتم على مؤلفها ان يتخذ موقف الراصد لبطله فياض : ان يقبع في اعماقه ، ويسدد « الكمرة »، من هناك ، نحو الآخرين ونحو مختلف المرئيات ، ما دام فياض الشخصية الرئيسية الوحيدة في الرواية التي يدور في فلكها الآخرون .

ولكن ... لم يبد لنا المؤلف واعيا لهذه الاولية في الفن الروائي . فكان لا بد ، بعد ذلك ، من ان يضطرب الامر بين يديه ، حتى لتنقلب الرواية الى ما يشبه « المأساة » في نظر العارفين في فن الرواية العظيم . انه يرافق فياضا ، الشخصية الرئيسية الوحيدة ، أنى ذهب ... ولكن يتراءى له ، احيانا ، ان يشط عنه ، فيتابع ـ بعيدا عن البطل ـ شخصية ثانوية ، ويوزع امكاناته بقدر ما يشتت من تتبع القارىء للخط الرئيسي للرواية .

ولقد احببت ، فترة ، ان اتصور ان مؤلفنا قد توخى ذلك متعمدا. ولكن أي غناء يمكن ان يعود على عمله الروائي من استطراده ـ مثلا ـ في حوار انشاه بين « ابو روكز » صاحب معمل المسامير وبين « ابو سبع » سائق السيارة الشاحنة ؟ حوار استغرق خمس صفحات (من ٢٧٦ ـ ٢٨٠) ، ليس بينه وبين مضمون الرواية الرئيسي اية وشيجة .. كله « علاك » ، وفيه بذاءة !! لقد طير عقلي !

وكنا ، كلما قطع المؤلف علينا تتبعنا لبطله فياض ، نعود اليه لنسال : ما حل به ، هذا الشاب الطيب ؟

ان الزمن ، الذي استغرقته احداث الرواية ـ كما اسفرت آخر صفحاتها ـ عامان اثنان : « راح شبح يتسلل . نفس الطريق ، قبل عامين ، وانما بالعكس » (٣٧٢) . فكيف ـ تراها ـ توزعت اشهر العامين وايامهما ، على صفحات الرواية ؟

عدمنا ، ههنا ، ايضا ، التخطيط في الرواية . اندفع المؤلف يكتب ويكتب ... حتى سود ثلاثمئة صفحة وخمسا واربعين : وصل فياض متخفيا الى بيروت .. التجأ في بيت غزالة .. عمل .. ترك العمل .. التجأ .. انتقل الى بيت آخر .. عمل .. ثم عمل .. ثم التجأ .. ثم جاءه رفيق يهمس في اذنه انه « يجب ان يغادر هذه المنطقة » (٣٤٥) ! وكنا هنا قد بلغنا نهاية القسم الرابع ، الا اننا لم نستنفد من زمن الرواية ـ العامين ـ الا اقله : نحوا من ثلاثة اشهر !

وقد كان متاحا للمؤلف ـ لولا ان ادركه الملل ـ ان يمضي على هذا المنوال ، فيسود لنا من احداث العامين الفين او ثلاثة آلاف من الصفحات . ولكنه نظر ، فوجد امامه ، بعد ، زمنا طويلا عليه ان يغطيه . ولا عليك ، يا حنا مينه ، هيا اختزل الزمن ... فزاد بذلك بناء الرواية تخلخلا واضطرابا .

اغفل ، اولا ، عاما كاملا . طواه بعيدا عن ساحة معرفتنا ! قال : « بعد سنة من هذا التاريخ نشرت الصحف تفاصيل مثيرة ... » (٣٤٧) ، ثم حدثنا عن ان فياض ، الذي قبض عليه في هذه القضية المثيرة ، قد حكم عليه بالسجن . و « ذات صباح ، بعد ستة اشهر تقريبا ، خرج فياض من سجن الرمل » (٣٦٠) . ثم ، في ايجاز بالغ : توارى .. عمل متنكرا .. لجأ الى قرية في جبل لبنان ، وفرغ من وضع قصته الطويلة .. كاد يقع في حب جارة له في وقوفه وراء النافذة التي دخل منها الثلج اليه .. قرر العودة الى الوطن ... وقد استغرق زمن هذه الحوادث المكثفة اثنتي عشرة صفحة فقط ! وقد كان المؤلف يبدد ، من قبل ، باستطراد عابر ، صفحات وصفحات ! فتأمل.

ومن « الاستطرادات » التي ثقلت على الرواية ، وقوف فياض في ساحة البرج ، و « المونولوج الداخلي » الذي اداره المؤلف حتى انتهى ببطله الى ان يتذكر اللافتة التي كان قد قرأ فيها قبل اعوام خلت : « الصلح سيد الاحكام والصلح سيد الحكام » (٢٣٩) (١١) . وكذلك استغراقه في وصف « سركيس » ، وهو ينقر على الدربكة ، ويغازل فتاته في النافذة (٢٩٧ ـ ٣٠١) (١٢) . واما ذلك الاستطراد ، في خاطر خليل ، الذي استذكر فيه حكاية « الكيلوت » ، كما روتها خالته أم بشير (٣٥٠) ، فانه لشيء عجيب !

على ان اطرف ما وقعنا عليه في الرواية من استطراد ، ان نكتشف متأخرين (في القسم الرابع) ، ان لفياض ابنة عم في الوطن ، وانها حبكت له « كنزة » من صوف ، وارسلتها اليه في منفاه في وقت سابق ، دون ان ندري نحن القراء عن هذا شيئا . والغريب انه لم يفض الكنزة حين تلقاها ، واذ فتحها ، الآن ، « سقطت منها زجاجة عطر صغيرة » (٢٨٢) ، وهنا يعلم فياض ، ونعلم معه ، انها تهواه ! ثم تعود ابنة العم هذه ، لتغيب عن باله كما كانت غائبة من قبل ...

واذا كان هذا شأن بنت العم الطيبة ، التي دخلت متأخرة دون ارهاص لتغيب الى الابد ، فان ام بشير دخلت متأخرة (١٠٠) دون ارهاص ايضا ، الا انها استمرت تلعب دورا مقبولا حتى آخر الرواية .

وكما ان المؤلف يستطرد فيحمل عمله الفني عبئا ثقيلا ، فانه يجتزىء ، احيانا ، مواقف تعد من صميم العمل ولا يصح اجتزاء شيء منها . من ذلك انا اكتشفنا ، متأخرين مرة اخرى ، ان افراد اسرة غزالة « موسيقيون » (١١٨) ! ورد ذلك على لسان أم بشير . وقد حسبنا انها تهزل . ولكنها تخبرهم ، لحظتها ، انها اتفقت مع اصحاب عرس على ان يحيوا لهم حفلتهم لقاء أجر سمته ! وقد قبلنا ، مع الاستغراب ، هذه المفاجأة . واذ كان المؤلف مولعا باستطراد وتفصيل ، ولما رأيناه يبدي اهتماما بالحفلة المزمع اقامتها ، فقد منينا النفس بأن نشهد وقائعها فهي ، من وجهة ما ، حدث ذو شأن في مجرى الرواية . ولكن ... بعد التشويق ، وبعد الزغاريد التي اطلقت ، فطن المؤلف الى انه وضع نفسه في مأزق : ان وصف وقائع الحفلة امر يحتاج الى روية والى كبير عناء ، فاذا هو يفاجئنا بسطرين اخيرين يقول فيهما هذا القول : « وصار العرس في الموعد المحدد ، فعزف « التخت » ابهج الحانه واغنياته ، ورقص العروسان ، ورقصت ام العروس وابو خليل ، ودام الفرح الى منتصف الليل ، ثم انصرف الجميع » (١٢٨)!! وكفى الله الروائيين جهدا في التاليف يشق على النفس !

وان أنس لا أنس غلطا فاحشا هو ثالثة الاثافي في بناء هذه الرواية الفني : خليل غزالة قاعد على حجر ، ينظر في الجريدة ويتفكر .. ويرود الخيال مجالات شتى ، من ... الى ... حتى نراه يفكر باشياء هي لصيقة بالعوالم الخاصة بالآخرين ، من المفترض انها خارجة عن نطاق علمه : خواطر لابيه عن كتفي بنت الجيران العاريتين والوصايا

١١ ـ يريد المؤلف بـ « الصلح » الاخرى : الرئيس رياض الصلح.

١٢ ـ لا ادري لماذا يصر المؤلف على ان يسمي فتاة سركيس « الافعى » ، دون ما مسوغ انساني !

اقرأ كل شهر

الطريق

مجلة الفكر والثقافة التقدمية

في العالم العربي

تصدر في مطلع

كل شهر

العشر ، خواطر لجوزيف تتعلق باسرار حياته الخاصة ، وتساؤلات دارت في خاطر دينيز (٣٥٢) .. من اين جاء خليلا العلم بذلك كله ؟!

لقد تمزقت ، في الحق ، في هذه الرواية ، اوليات الفن الروائي شر ممزق ، وذهبت ضوابطه ادراج الرياح (١٣) .

٦

ولن احاسب المؤلف على هفواته النحوية واللغوية التي منها : « انتظري وستري » (١٨) ، « ان ما يحلونه على الارض يكون محلولا في السماء » (١٢٥) ، « أؤمن » (١٩٢) « هناء وأم بشير يتحدثان ويشربان القهوة » (١٩٩) ، « وآوى الى فراشه » (٢٦٢) ، « فما بالكم خائفون متبلدون ؟ » (٣٠٦) ، « نحن ضروريان لبعضنا » (٣٦٨) ... لن احاسبه الحساب العسير ، لان كتاب جيلنا ، والجيل الذي يسير على درب الادب وراءنا ، قد عودونا على ان نرى في هذه الاخطاء التي تخزي ، هفوات جديرة بالغفران . ورحم الله جبلا تولى كان يحسن الكتابة في لغة امته ، ويحل اللفظ محله ، ويقرأ كتاب العربية الاعظم : القرآن ، قبل ان يخدع نفسه فيحسب انه تملك « وسيلة التعبير » (١٤) .

١٣ ـ على ان ثمة استطرادات ثلاثة ، عمادها المونولوج الداخلي مقرونا بالارتداد بالذاكرة الى الماضي البعيد ، وردت في الصفحات : ١٧ و ٢٧ و٣٢ و٨١ ، تتصل بذكريات فياض عن ابيه ، أراها بارعة الى حد طيب .

١٤ ـ من امتع ما قرأت ، لغة عربية سلسة وجزلة في آن، ومعبرة عن « خلجات النفس وحاجات العصر المستحدثة » جميعا ، اللغة المشرقة التي ترجم بها فخري ابو السعود عن الانكليزية رائعة توماس هاردي : « تس سليلة دوبرفيل » ، الصادرة عن « لجنة التاليف والترجمة والنشر » بالقاهرة في العام ١٩٣٨ .. هذا الكاتب العربي المصري الفذ ، الذي انهى حياته الواعدة وهو في نحو الثلاثين من العمر.

ولكني أزعم ان الركاكة فاشية في لغة الرواية ، في سياق وحوار معا . ولم تعوز هذا الكتاب « البذاءة » في اللفظ احيانا ، وقد وجدت فيه فحشا دون ان اجد لهذا الفحش او لالفاظه البذيئة مسوغا من فن او ادب ! (١٥) ... ولعمري ، ما كنت أحسب ، قبل اليوم ، ان مؤسسة ثقافية رسمية كبرى ، يصدر في منشوراتها شيء من هذا قط!

وتبقى لي ، في هذا المجال ، همسة صغيرة : لقد خذل المؤلف ، روايته هذه ، الرأي الذي طالما تردد في الاوساط من ان الروائيين السوريين بخاصة ، يعتزون بلغتهم العربية ويهتمون بها ، اكثر من اهتمام زملائهم المصريين .

٧

واما القول بانها رواية « يسارية » ، ففيه ظلم فادح كما أرى . فهذه الرواية لم تجيء قط في صف اليسار ، بل انها جاءت ـ على النقيض ـ ضده ، ما دامت قد اخفقت في ان تقدم لنا نموذجا بشريا ذا قضية واضحة الابعاد ، نحبه ، ونحترمه ، ونحمل السلاح وقد عقدنا العزم على افتدائه حتى الموت .

دمشق — **فاضل السباعي**

١٥ ـ انظر الصفحات : ٢٩و١٨٢ و٢٧٦ ! ويخيل الي في ذلك، ان المؤلف قد تاثر في هذا بجان بول سارتر ،كما تجلى لنا بوضوح في ثلاثيته الشهيرة « دروب الحرية » ، « الفارقة في وحل البذاءة » كما قال احد النقاد الفرنسيين .وليت مؤلفنا كان أخذ عن الكاتب الفرنسي الكبير براعته في تقديم شخوصه ، في الجزء الاول من ثلاثيته : « سن الرشد » خاصة ، ماتيو ومارسيل وايفيش وبوريس ولولا ودانيل ...

صدر حديثا

العمل الفدائي

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على ارض يحتلها العدو . ويرفض أهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه،والاساليب الاجدى فيالدعوة اليه وممارسته والظفر بعد ادائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة اليه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح أفضل السبل لنصب الكمائن ولغم العربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين — **الثمن ٢٠٠ ق.ل.**